



زهة الطائر الصبيح والزهيمية

بقلم محمد عبد المجيد

والجثث النطايرة كالبالونات المشوهة ، الشمس التي تنفذ الى العيون ، مخترقة مهيب الاجساد والمنكورة في الصحراء الذائبة في الزمن . الرمل والعربات المحترقة في الشمس ، الاصوات المهومة ، والاوامر المشححة بالتردد ، الاعضاء المناثرة ، والمخلطة مع مئات الجثث . المسوت والوجود .. هل ثمة توافق ما .

جلس . انتبه الى امرأة كانت جالسة في المقعد الملاصق لمقصده قرب النافذة ، لم يميز شكل المرأة . كان متعبا ، وغائبا في نفسه .. في الليل .. كان الجنود يتكئون شهواتهم في اكفهم المحروقة ، ويتحدون عن زوجاتهم المريضات .. وعن الافخاذ التي ترتفع وترتفع .. التاوه واللذة .. النهود المنتفخة ، والمليئة بحليب معرض .

كانت الافواه غرقى بالفاجعة .. والظل المنسكب لاعمدة المخيمات الخشبية على الوجوه المصفوفة ، يتدحرج كماء البارد ، اصوات خشنة وناعمة ، خافتة وغاضبة ، كان يحس فقط ، بانه غائص في كل شيء .

- توفقت الحرب .

- لا فائدة من وجودنا .. اذن !

- ان صمتنا يمثل خيانة اخرى .

- زوجتي ماتت .. كانت الولادة صعبة ، والطفل الذي اخرجوه ،

كانا ميتا ايضا .

- متى حدث هذا ؟

- لا اعرف بالضبط .. انهم لم يذكروا الزمن في الرسالة .

وفجأة ، اندفع الى الامام ، برجة عنيفة ، اشبه بالصفعة ، وامسك الحاجز الخلفي للمفعد الذي امامه ، وكرزت المرأة ضحكة صغيرة ، واكتشف بانه كان نائما ، الى حد ما ، انه يفظ ، ولكن هذا التسبب اللعين الذي يمدد في اعماقه كالسهم .

وتحرك القطار ببطء .. كان صرير العجلات يعلو ، كالبكاء . ركض الرجال باتجاه حركة القطار ، وتعلق البعض الآخر ، باذرع الابواب الحديدية المشرعة ، وامتزج ضحك الاطفال بموجات دخان الطائر المرتفعه على شكل حلقات دائرية الى اعلى .. وفكر (التدخين - عادة مسيئة) . وتطلع الى وجه المرأة المنشطر الى قسمين بفعل الظل الايمن من النافذة ، والضوء المرنبك على القسم الآخر ، المواجه له ، كانت تبسم ، او هكذا خيل له ، احس برجفة خفيفة نوري ما بين فخذيه ، وقرر : ينبغي ان اخذ قسطا من الراحة ، منذ يومين لم انم .

- كنت في الجبهة ؟

شعر بالارتباك ، كطفل بوغت فجأة وهو يفعل شيئا سيئا وفكر

(اية وقاحة هذه) الا ان المرأة قالت بعد تردد .

- انني اكره الحرب .

- وانا ايضا .

كان مدفوعا برغبة غامضة ، الى ان يقصر نفسه ، على ان يكون محايدا ، الى حد ما ، كان الليل يلون الافق البعيد ، والمترامي خلف النافذة ، بالعنف الاسود وفكر . (لم اجد فيها رائحة امي ؟)

- هل واجهت الموت .. هناك ؟

ضحك . ثم افرد اصابع يده اليسرى ، خمس زوائد خشنة ،

ومنفردة ، وقال بعذاب مر .

- كنا غائمين فيه .

ولم تبك . وحدتها عن الجنود القابعين في المخيمات ، الناركين شهواتهم للصحراء ، النائمين في عربات الدمع والغيرة ، والذين لم يكن لهم ، سوى البقاء ، لانهم لم يجدوا في الموت قيمة ما ،

شم رائحة الاصدقاء ، والشمس المالحه في اصابعه ، والخوذ والملابس الخاكية المقبرة ، الوجوه المصفرة التي تنظر الى اسفل ، وهي مخبوفة بفعل الم سري . كان يحس بانه مقنوف عبر الزمن ، كشيء عائم ، خفيف جدا . وهو ودان يلمس وجهه (اني شاخص يقينا) . كانت الاصوات النحاسية نمر برأسه ، كالصافير الفرعة .. ونظر :

جنود يحفظون احلامهم في اسنانهم التالفة ،

ونحت الخنادق المفقومة بالموت والبارود .. لهم

سحنات كدرة .. ونظرات قلقة ، هائمة ، تمس

هواء الفرخ المؤجل . كان يشعر بهم .. وهم

يمشون في جلده ، كالتمش .. ينامون في فمه

كالصلاة (انهم يحسدونني ، بالتاكيد ، لانني

حصلت على اجازة) .

ودان يقول لهم ، بانه لم يعد تهمة الاجازة ، تلك الايام المرحه ، الشابه ، لان لا فائدة ، من كل شيء بعد ، ولكنه اطفأ رغبته ازاء هذه الاجساد المنهوكه ، والنظرات الجبلى بالمعاطفة .

كانت المحطة ميتلة بالظل الساخن ، والاولاد يهتفون علسى بضائعهم .. الاولاد يركضون في العيون .. والمحطات الليلية . يركضون دونما الم .. وتطايرت فطور البيض الفاسد ، والبرتقال ، وبعض قطع كالحة من اوراق جرائد قديمة ، واعقاب سكاكر رديئة .

كان غائبا في بركة من الالم الوحشي ، وهو يحس بشقل الهواء الخشن في رنتيه .. بشقل حقييته السوداء ، وهي مليئة بعناوين من ماتوا في الحرب ، وبقايا ملابسهم البسيطة ، وبطاقات الاصدقاء الجرحى .. انه يتذكر الان .. وجوه الجنود المشبعة بحزن غامض ، وروائح اجسادهم المزوجة بالقباب والبارود .. بضحكيات ميتة ، ويرغبات بائنة لنساء يقفن في بيوت من طين رمادي .. وهن ينتظرن مجيء الفرخ ، فوق اوام من فصة ، الفرخ الموشوم بالحناء والطلع . وتندرج ظلّه فوق رصيف المحطة الاسمنتي .

(توفقت الحرب .)

وترك يده تارجح ببطء ، والحقيقية ترتفع وتنخفض ، والسماء ذائبة في عينيه .

(ربما لن اجد مكانا في القطار ؟)

وتذكر بان لا احد ينتظره هناك ، قرب المحطة التي تقع في الجانب الاخر من الهور ، حيث كان اهله يسكنون .. وهو الان بدون عائلة .. ماتت امه منذ امد بعيد .

وامتلا بجسد الهور المشبع ببكاء السمك والعشب ، واشجار النخيل ، واعواد البردي ، اصوات طيور الماء .. الهابطة والقافزة فوق اهداب الماء الاخضر ، وطرطشة المشاحيف المدورة ، وطيور الخضيرى الميتة بالمعاطفة . رائحة الخبز الارزي ، وحنين البيوت الطينية ، المنسحبة خلف المياه المتوحشة . (سأنور قبر امي) .

وصعد سلم العربة .. ثلاث درجات مستطيلة ، ومقلقة بشرائط من الحديد الرديء . اندلق في دهليز قصير ونظيف . ثمة كراس انيقة على الجانبين ، مبطنة بالاسفنج الرمادي المخطط بالوان سوداء ، قافعة . ونفذت الى انفه ، حموضة البرد ، وضع حقييته فوق رف حديدي يمتد الى نهاية العربة المكيفة للهواء ، ولمس البرد المتوحش .

(لماذا توفقت الحرب ؟)

تعب . تعب في الرأس ، وفي نفوس العينين الذابلين . الحفر

أرتبك . كانت تنظر اليه بود .. نظرة ذائبة .. شغافة، وكانت وقفات القطار القصيرة في المحطات الفاطسة في النوم ، والحزن الذي يصدر في طرفات القرى ، وبين أشجار النخيل ، وصفارات عمال السكك القاطنين في المفارق النائية ، ورائحة جسدها المختلط بهمس السمك، وحنين الهور والطلع .. ولكن لم تكن تملك رائحة امي ؟

وقالت :

- الم تحب ..؟

- نعم .. احببت .. كان هذا قبل ان اذهب الى الحرب ..

كانت فتية ..

- وهي ..؟

- في الجنوب حين تحب المرأة رجلا ، تقتل نفسها لاجله ، واذا تزوجت من غيره ، فانها لا تخونه الا نادرا .

- وهي ..؟

- تزوجت من آخر .. كان موسرا جدا .

وضحك بهوس مجاني .. خيانات .. خيانات ممبأة بالود المشوش .. خيانات في البيوت والخنادق .. في المخيمات ، وفوق سطوح المنازل الواطئة .. بين الخطوة والخطوة .. خيانات في الحافلات والشوارع المهمومة .

ولمست يده ببراءة .. لم تكن تفكر في شيء ، الا في يده الممدودة فوق الحاجز المحصور بين مقعديهما المتلاصقين . كان قلعا .. وكانت هي مفتبطة ، الى حد ما .

- الى اين ستذهب ؟

- سأزور قبر امي .

- فقط ؟

رفع رأسه الى اعلى .. كانت الحقيبة غافية فوق الرف الحديدي المشبك ، وكان جلدها اسود فاقما .

- ما فائدة كل هذا ؟

- ماذا ؟

- لا شيء .

نهض ، وسحب الحقيبة بثقة ، وقرر ان يفعل شيئا ما . عاد الى مكانه ووضع الحقيبة فوق ركبتيه ، كطفل مدال .. وهي لم تفهم أهمية ما يفعله .. فتح القطاء الرقيق . وغطس كفه اليمنى في البطافات والرسائل والعناوين .

اسماء . اسماء متناثرة ، تختلط مع بعضها .. الموتى والاحياء .. اسماء كانت تحمل هويات متممة لكائنات حرة .

- ما فائدة كل هذا ؟

انزل شباك النافذة الزجاجي ، وانهمر الليل كالوجة الفاضية ، الى الداخل ، ورمى بكل ما تحويه الحقيبة من النافذة ، وتطابست الاوراق المستطيلة والمربعة .. الزرقاء والبيضاء .. اوراق محترفة بكلمات خشنة .. ثم قذف بالحقيبة ايضا .

جلس . احس براحة غريبة فغمره ، كالبرق الحاد .

- لماذا فعلت ذلك ؟

- لم تعد ثمة فائدة .

ابتسم برقة مؤلمة .. خيانات في الاصابع الممدودة .. وفي القلب .. والليل الشائخ وفي البنادق المهوزة بالخدمة .. وقرر (لن ازور قبر امي .)

وتمدد على طول مقعده .. استرخى بلذة .. وخلعت المرأة بلوزتها الرقيقة والتي بلون الدم ، وغطت ركبتيه ، وصدره بخنان ربيعي ومسك يدها المرتجفة .

بدا له كل شيء متشابها .. وفكر (حتى النساء ، متشابهة يقينا) كانا مبتلين برغبة رجراجة ، والليل يخترق المسافات المتوحشة بين اشجار النخيل ، والبيوت الطينية الكثيبة ، واعمسدة الضوء المتخاذلة في البرد .

محمد عبد المجيد

بفداد

لوجودهم الحقيقي ، استغربت . ولكنها لم تظهر اي اثر للالم ، ووصف الحالة هناك، حيث كانوا يقابلون الخيانة منذ البدء . كانوا يدركون بان ثمة اشياء خطيرة ستحدث ، وقد حدثت فعلا . وصمت .

كانت الاصوات تأتيه من كل جانب ، وهذه الاهتزازات المجانية، تمنحه بعض الراحة ، اهتزازات توظف فيه ، رغبات مسحوفة ، كان يدرك ، بان جسده قد تفسخ الان ، وتحلل نهائيا ، ولكنه ما زال يذكر : رائحة امه التي تشبه الحليب الطازج ، رائحة شهوية ، مرحة، رجراجة تدفع الشهوة الى اعماقه ، وهو كان يبحث عبثا ، عن نللك الرائحة في اجساد النساء جميعا، وقد حز في نفسه ان تخدع حواسه في كل مرة ، وقالت المرأة بهمس لذيذ .

- عائلتك من الجنوب .

اطلقت زفرة خفيفة ، لم يكن يحس بالالم ، او الحقد ، انما كان يشعر بانه منفصل عن نفسه ، ولا علاقة له ، بالاشياء .

- لم تعد لي عائلة ؟

- كيف ..؟

- كلهم ماتوا .

- الا انت ..

وضحكت بمرح طفولي . نظر الى عينيها المتوحشتين، وضحك .

- مرة اخترقت رصاصة لثيمة ، رأس صديقي .. كنت امسح مدفمي الرشاش ، وكان هو يطلق نكتة فاجرة ورائته .. اهتز رأسه، ورفس الارض بقدميه للحظات .. ثم خمد جسده ، وتجمد الزمن في فمي .

- لماذا تتحدث عن ذلك الان ؟

- ربما بسبب الضحك .. لا اعرف .

وصمت ، لحظة ، نهض واجاز ببضع خطوات ، المر المؤدي الى المسئلة ، وغاب لحظات ، ثم عاد . كان وجهه ميتلا ، وقطرات الماء عالققة في كم سترته الخالية ، ابتسم للمرأة برقة .

- لقد تقيت .

وضحكت . حدثته عن زوجها الذي كان يشك فيها ، ثم قررت ان تنفصل عنه ، وطلقتها ، وهي الان ، حرة ، وعائدة الى اهلها الذين يسكنون في البصرة ، وسرحت ببصرها بعيدا .

- كنت تحبينه !

- كنت ..

احس بفخذها يلتصق بفخذه .. لحم طري .. يرانج برخاوة مسكرة .. وهذه الاهتزازات المتلاحقة ، المتوترة ، اشبه باللغات الابدية .. وطبور الخضيرى النائمة في بطن الهور ، والليل يعدو ، ضاحكا في الخارج . وفكر (في الليل تكون شوارع عمان عارية .. ونعسة .)

استرخى بمرح .. وقالت :

- الم تحب ..؟

- في الحرب ، لن يجد المرء وقتا للمعاطفة .

الانتظارات المحرقة ، في الخنادق المشيبة بالموت الاتي من الجانب الاخر .. انتظارات محملة بالود والقلق .. انتظارات تعدو في جسد الليل ، كالكارثة ، حيث نعلم فقط ، باوقات النوم المؤجلة .. ونختلط في اذهاننا ، روايح الماضي والحاضر والمستقبل .. الحركة الدائمة ، نمو الصعود الى الزمن .

ما من شيء تحصل عليه .. ما من شيء يفقدنا الى ان نقف في مواجهة الاشياء . الاصواء التي تفرقع فجأة في فم السماء ، لتكشف عن مواقعنا .. طلقات متوحشة تنفرس دائما في جسد ما .

الضحك في الحفر المليئة بالوجل . التبغ الرديء الذي نعسا منه ، يجنون ثم ، هذا الوجود المشوش ، ما الذي يربطنا به ؟ هناك .. هناك فقط .. تجد علاقتك بالماضي اقوى مما تكون .. لانك لا تملك اي شيء حينذاك ، الا هو ، علاقة مدمرة ، ولثيمة : ان تكون محتظا الى شيء ميت .. تحرك رماده البارد بقصبة جافة .